

رأيته في اللطف

بقلم: آية علم الدين

يسألني الصغير عندما أخبره عن الله: «هو ربنا فين؟»

لا أعرف ردًا محددًا لهذا السؤال، حتى الإجابة التي اعتدنا عليها منذ كنا صغارًا، أشعر أن فيها تدليسًا على الأطفال، لكنني أقولها لأنها الأقرب، وربما الأسهل بالنسبة لفهمي وفهمه: «ربنا في السما».

«وجدو عند ربنا في السما؟»

«أيوه يا حبيبي»

«طيب انتي شفتي ربنا؟»

لا أستطيع الرد! هل رأيته فعلاً؟

لو كنت يا صغيري في موقعي هذا ما سألتني: هل رأيت الله؟

نعم رأيته رؤية القلب والروح، فما العين إلا مرآة لما يراه القلب لا العكس، فالعين المجردة تخفي عن المحب عيوب محبوبه، والعين وحدها تخدع الكاره عن محامد من يكره، ألا يقولون: عين الرضا عن كل عيب كليله ولكن عين السخط تبدي المساويا! إذا فما الذي قد أعولّه على رؤية النظر فقط إن كان القلب رأى والروح شعرت ولمست، بل وطعمت هذا المذاق الحلو لقرب الحبيب؟

لم يكن أبي بعدُ قد أتم عامه الأول في دار البقاء، ستة أشهر أو أقل لم أذق فيهم

طعمًا للحياة، كنت أرى الكون من خلاله، فلما ذهب ذهبت معه الرؤية، بل وذهب طعم الحياة كلها، حتى ذهبت إلى ذلك المكان الذي دعاني صاحبه إليه دون حيلة مني.

في خلوته التي يحتضنها جبل حميثة جلست حيث جلس سيدي صاحب الخلوة والكرامات، الذي وقف على باب المدينة المنورة يومًا عاري الرأس والقدمين حتى أتاه الإذن من ساكنها عليه أفضل الصلاة والتسليم، أما أنا فلم أكن بمثل هذا الأدب والعلم حتى أفعل، فقط جلست حيث أجلسوني، وصعدت أتلمس خطو الصالحين؛ عليّ أجد على الجبل هدى لنفسي الحائرة وقلبي الضائع.

خلعت عقلي على باب الجبل المقدس، وصعدت كما صعد المريدون، أنظر إليهم كلما غلبني التعب، فأرى على عيونهم أثر المحبة مستقرًا، والود لا يفارق ثغورهم حتى أنني ظننتهم الملائكة!

وعندما استقر بي الجلوس على حجارة من الجبل بمقابل المقام، وبينما يحاول كل منهم أن يخلو بالحبيب فيهمم بروحه إليه، غفوت!

أجل غفوت، أو بالأحرى صحوت من غفوة الجسد في أغراض الدنيا الزائفة إلى حقيقة لم تكن من قبل بهذا الوضوح والاتساع، وجدتني في موكب كبير أقف على عتبات شيخ مليح الوجه مهيب الجنب ذي لحية بيضاء خفيفة وابتسامة أبوية حانية، طلبت الدخول عليه فأدخلوني، وبينما أخطو بخطوات وثيدة حائرة في جمع كلمات الشكوى واختصارها للبث وجدته يبسم لي بيد ممدودة للسلام.

مددت يدي، فلم يعد بعدُ قلبي كما كان قبل السلام، وكأن هذا السلام كان بمثابة غسيل لكل الأوجاع التي اختزنها عقلي على مدى سنوات عمري الماضية، ضمة ليدي الباردة أعادت الحياة إلى جسدٍ مَمَكَّن منه الحزن فظننته مات، وابتسامة ودودة همس لي أن «اطمئني» فاطمأنت!

أهكذا وبكل هذه السهولة؟ أجل؛ إنه لطف الله الذي ينقذ به عباده، قبل أن يسقطوا على أعتاب اليأس، نقطة النور التي تبدد ظلام أنفسهم فتحيله إلى ضوء ساطع يهديهم إليه.. إنه لطف الله بعباده.

وتسألني يا صغيري: هل رأيتِ الله؟ فأقولها بفم مملوء: نعم رأيتُه.. رأيتُه.. عندما تشتد مصائب الدنيا عليّ فأجده -دون مناسبة- قادمًا إليّ ليحتضنني فيزيل عني كل الهموم! رأيتُه في حادثة طريق كادت تودي بحياتي لكنه وضع نجاتي في حزام أمان هزيل! رأيتُه في دعوة جارتنا المسكينة ألا تموت وحيدة، فيشاء لها الله أن تنتهي حياتها في يوم زيارة العائلة!!

الله لطيف بعباده، وأنا رأيتُه في اللطف..